الحسن مع الإمام علي

كان الحسن يدعو جده الرسول صلى الله عليه وسلم (يا أبى) ويقول لأبيه الإمام على يا أبا الحسين – وكان الإمام ينصح الحسن إذا حضر ويكتب له إذا غاب فيحقر له الدنيا ويعظم له الآخرة ، ويتعهد فى نفسه العقيدة دون أن ينسى مرافقة نمو مداركه وتقوية ملكة التبصر فيه ليجعله صمداً منيعاً إلى أن أخذت معانى السمو تكتمل فى الغلام . وتلاقت فى نفسه أنواع الإرشادات فاختمرت وقذفت به نحو التضج شوطاً بعيداً ، فصار له الرأى الشخصى والقوة الذاتية .

وأصبح[1] يدعو والده إلى القعود عن الحرب أو يحفزه إذا ما قعد عنها ، وهو فى هذا وذاك فذ له اجتهاد صائب عليه برهان ودليل . . فمن ذلك أنه رافق أباه إلى الجمل ، وإذ هما فى الربذة اعتملت فى نفسه فكر مختلفة فضاربها ووازنها ثم استنتج وقال لأبيه فى أثناء احتدام الجدل : (ستقتل بمضيعة لا ناصر لك) ، فأجابه والـــده بشىء من الأنـــاة والرفق : (إنك لا تزال تحن علىّ حنين الجارية – وما الذى رأيته واستصوبته ؟) فيندفع الحسن إلى تفنيد رأى تبناه ويقول : (لقد رأيت لك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم رأيت لك يوم قتله ألا تبايع

(١) الحسن بن على (كامل سليمان)

حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت علىّ ، ورأيت لك حين خرجت السيدة عائشة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك فلم تقتنع منى بذلك كله .

وضاق صدر الوالد وقال لابنه : أى بُنى – أما قولك – لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به – وأما قولك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى فبايع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم توفى وبايع الناسُ عمر فبايعته ، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى ، فجعلنى سهماً من ستة أسهم ، وبايع الناس عثمان فبايعته – ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعونى طائعين غير مكرَهين . وأما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير فكيف لى بما قد لزمنى .

وقد قال الحسن لأبيه يوم النهروان : يا أمير المؤمنين – أكان رسول الله تقدم إليك فى أمر هؤلاء بشىء ؟ فأجابه : إن رسول الله أمرنى بكل حق ، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

وكان الإمام يوصى الإمام الحسن دائماً ويطلعه على ما طوى صدره من العلم الثرار فمن ذلك قوله له : (يا بنى احفظ عنى أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش

الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق . يا بنى إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب) .

ومن هذا نرى أن الإمام رضى الله عنه دائم السهر على ولده يشرح له بفصاحته المعهودة ويزوده من معارفه .

وفى واقعة الجمل كان الإمام الحسن فى ميمنة الجيش وأخوه فى الميسرة والراية بيد الأخ الثالث محمد بن الحنفية وكان الوالد يقذف بمحمد ويكف الحسن والحسين – فقيل لمحمد : (لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بأخويك ؟ فأجاب : إنهما عيناه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه بيمينه . .)

فالحسن عند أبيه ساعد قوى والإمام على يزحف وأولاده من حوله يشدون أزره ويسندون ظهره – وقال الإمام لابنه الحسن فى هذه الواقعة : (يا بنى – ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً) ويرد الإمام الحسن : (يا أبت لقد كنت أكره هذا) .

وبعث الإمام على رضى الله عنه بعثه إلى العراق وعلى رأسها الإمام الحسن وكان يحمل كتاب والده الذى رسم فيه قصة مقتل عثمان ودور كل من دعاة الانتقام فيه ونقل به إلى أذهانهم صورة حقيقية لأمر الخليفة المقتول جعلت السامع كالمعاين فهدأت عند تلاوته خواطرهم . وجاء فى هذا

الكتاب : (إنى خرجت مخرجى هذا إما ظالماً أو مظلوماً وإما باغياً وإما مبغيًّا علىّ فأنشد الله رجلاً بلغه كتابى هذا إلا نفر إلى فإن كنت مظلوماً أعانني وإن كنت ظالماً استعتبنى . . .)

ولما وصلت البعثة وكان من أعضائها عبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، خرج إليهم أبو موسى – فقال له الحسن : (لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء) . فيجيب أبو موسى : (صدقت بأبى أنت وأمى ، ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ، وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا . . .)

وقد رد عليه عمار متجهاً إلى جمع غفير من الناس وقال : (أيها الناس إنما قال له وحده أنت فيها قاعداً خيرٌ منك قائماً) . ثم قام الحسن وقال :

(أيها الناس إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقّه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين ، قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى كل من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرُب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم ترد له شهادة

ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه ، لتؤازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ما له ، فأشخصوا إليه رحمكم الله فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر واحضروا بما يحضر به الصالحون) .

وفى مناسبة ثانية قام فى الناس يدعوهم إلى نصرة الحق فقال : (أيها الناس إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين لأنكم جبهة الأنصار ورءوس العرب ، وايم الله لو لم ينصره أحد منكم لرجوت أن يكون فى من أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية ، فأجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، ووالله لئن بَلِهِ أولو النهى أمثل فى العاجل والآجل وخير فى العافية ، فأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً فاذكرّ الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر ، فإن كنت مظلوماً أعاننى ، وإن كنت ظالماً أخذ منى . . والله إن طلحة والزبير لأول من بايعنى وأول من غدر . . فهل استأثرت أو بدلت حكماً . . ؟) .

وفى مناسبة أخرى قال : (إن مما عظّم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه ، مالا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ، ولا يبلغه قول ولا صفة .

ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، ولم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم . واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا فى قتال عدوكم وجنوده ولا تخاذلوا . فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة .

ولم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الذلة ، وهداهم إلى معالم الملة . . .) .

على أن بعض المغرضين يتوهمون أن الحسن شاب هين إلى حد اللين لا يستجيب لظروف والده ، وإذا تراءت إيجابية فإلى قسط بسيط يشبه السلبية ، والحقيقة أن تصرفاته قد بلغت خير ما يرجى فبرهن على طول باع ، إذ رافق القضية وراعى تطورها بعقل رصين حصيف .

فها هو ذا[1] فى النخيلة – قبل صفين بأيام – يشهد تبادل التحارير بين أبيه وخصمه ويراقب المتألبين ويتعرف إلى المخلصين ويماشى الأحداث بيقظـــة ليتسرب إليه قليـــل أو كثير عن القادة أو عن حالة أى إنسان لأن المصطرع هائل والأفق مربد ينذر بيوم يحمل ويلاً وصَغاراً ، وإنه لما استشم ريح النكوص من أبى موسى – قبل ذلك بأيام – وإذ تحقق ذلك بنفسه قال له بكبرياء : (اعتزلنا لا أم لك ودع منبرنا) . . ثم نحّاه .

وكان الحسن يلجئ أباه إلى عزل الولاة وتعيينهم . بإشارته الرشيدة ، بل كان قبلة أنظار الناس يقصدونه فيُجيرهم عند والده ، ويعتذرون له فيقبل أعذارهم ، ويحاول لم شمل أصحاب أبيه . فمن ذلك أن الإمام عاتب سليمان ابن صرد الخزاعى وابنه على تخلفه عنه فى وقعة الجمل فحمل هذا فى نفسه شيئاً من الغيظ فاستلم الحسن إنهاء القضية لما قال له سليمان : (ألا أعجبك من أمر أمير المومنين ما لقيت من التوبيخ والتبكيت) فأجابه الحسن :

(١) الحسن بن على [للأستاذ كامل سليمان]

(إنما نعاتب من نرجو مودته ونُصحه) .

وقد كان الحسن يدفع بأبيه إلى السيوف دون أن ينسى موعظة نفسه ودون أن يدرأ عنها الخطر به ؛ إذ كان مع أخيه يبذلان النفس رخيصةً بين يدى المبدأ عندما رأيا المكروه يُحدق بأبيهما ، فراحا يستأذنانه ويرتميان فى المهالك غضباً لله وذبًّا عن الإمام وحزبه ، إلى أن ألجآه أن يقول لأصحابه : (املكوا عنى هذين الغلامين فإنى أنفس بهما عن القتل ، والله إنى لسخى بنفسى عن الدنيا طيب النفس بالموت ، ولقد هممت بالإقدام على القوم فنظرت إلى هذين قد ابتدرانى – يعنى الحسن والحسين – ونظرت إلى هذين قد استقدمانى – يعنى عبد الله بن جعفر ومحمد بن على – فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الأمة ، وكرهت ذا وأشفقت على هذين أن يهلكا) .

وإذ اجتاز أبوه الستين من عمره أوصاه وصية تعطينا صورة جلية عن مكان الحسن من قلب أبيه فقال :

من الوالد الفانى إلى المولود المؤمل .

إن ما تبينت من إدبار الدنيا ما يزعنى عن ذكر سواى ، غير أنى وجدتك بعضى بل وجدتك كلى حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابنى ، فعنانى من أمرك ما يعنينى من أمر نفسى .

أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ، وأى سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ، أحى قلبك

بالمواعظة وقوة اليقين ، ونوره بالحكمة ، وأعرض عليه أخبار الماضين . وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر فى ديارهم وآثارهم فانظر فى ما فعلوا وعما انقلبوا وأين حلوا ونزلوا ، ولا تبع آخرتك بدنياك وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وجاهد فى الله حق جهاده .

ويقول الإمام على لابنه الحسن : رأيت أن يكون ذلك وأنت فى مقتبل العمر – ذو نية سليمة ونفس صافية – وأن أبدأك بتعليم كتاب الله – واعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته .

ويقول الإمام : يا بنى اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح ما تستقبحه من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . إن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة ومشقة شديدة ، المخفّ فيها أحسن حالا من المثقل والبطىء عليها أقبح حالا عن المسرع وإن مهبطك بها لا محالة إما على جنة وإما على نار .

واستمر الإمام على فى نصيحته لابنه فلم يترك قاعدة فيها إصلاح الفرد أو إصلاح المجموع إلا تبسط فيها لابنه ليجعل منه رجلا مطبوعاً على الخير الخالص ، يفكر بالآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا .

واستفاد الإمام الحسن من هذه الوصية وأصبحت دستوراً له دستور حق واسع الشمول واضح المعالم .